ألتَّفاعُلُ النَّصيُّ مَعَ القرآنِ الكريمِ في الخُطَبِ الإسْلامِيَّةِ

(خطبة السيدة الزهراء انموذجاً)

د. محمد قاسم لعيبي

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد

فحوى البحث

خطبت السيدة فاطمة الزهراء في مسجد أبيها رسول الله ﷺ بعد وفاته بقليل، وفي حشد كبير من المهاجرين والانصار تدافع عن حقها في ميراث أبيها الذي مُنعتهُ بحجة أن معاشر الانبياء لا يورثون. وهي خطبة غاية في البلاغة رواها (ابن طيفور) المتوفى (٢٨٠ هـ) في كتابه الوثيق (بلاغات النساء) والبحث الآتي يسعى الى رصد التفاعل النصي مع القرآن الكريم وتحديد خصائص هذا التفاعل عبر اربعة اتجاهات ثم يبين كيف وظفت السيدة الزهراء النص القرآني لدعم كلامها منذ بداية الخطبة ومروراً باستشهادها لتوريث الانبياء أبناءهم وانتهاءاً بالآية الكريمة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [سورة هود: ٢٨].

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الذي بعثه بدين الحق رحمة للعالمين، وليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحبه الأبرار ومن تبعهم بإحسان لقيام يوم الدين.

أما بعـد:

تنفرد الثقافة العربية بظاهرة التفاعل النصو صي مع القرآن الكريم، لأنها تؤثر في عملية تواشج العلاقات النصوصية، فلا تعرف الثقافات الأخرى مثل هذا النص المقدس، فضلا عن تفرده بوجوه إعجازه المختلفة.

لقد شكل النص القرآني رافدا غنيا لجميع النصوص ولا سيما الأدبية منها، فالنص القرآني تتوافر لديه القدرة على إلهام الأديب لما يحويه من معان تناسب كل زمان ومكان، إذ أنها تتصف بالقابلية على التجدد والتفاعل وعلى مختلف الأصعدة.

وعليه نجد استدعاء السيدة الزهراء عليها السلام لآي القرآن الكريم أو ألفاظه أو قصصه أو شخصياته أو احداثه. إذيمثل أهم خصيصة إنمازت بها الخطبة الشريفة. التي تمثل رؤية خاصة عند السيدة الزهراء عليها السلام فالبستها ثوبها الجديد بما يتناسب والموضوعات والمواقف المراد التعبير عنها.

فجاءت هذه الدراسة تسعى إلى رصد اتجاهات التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء عليها السلام، والوقوف على آليات إنتاج الدلالة الجديدة وتوجيهها، وتحديد خصائص هذا التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم. عبر المحاور الآتية:

الاتجاه الأول: تمثل في التفاعل التركيبي للآيات القرآنية، الذي انقسم بدوره إلى قسمين، الأول اهتم بالتفاعل الكلي الذي يعتمد تفاعلا كاملا مع النصوص القرآنية، والآخر اهتم بالتفاعل النصوصي الجزئي الذي يعتمد نصا مع زيادة أو نقصان أوتقديم أو تأخير

الاتجـاه الـثـاني: اختـص بالتفاعل النصوصي مع الألفاظ القرآنية

الاتجـاه الـثـالـث: عـالـج التفاعل النصوصي مع الشخصيات القرآنية

الاتجاه الرابع: تمثل في التفاعل

النصوصي مع الأفكار القرآنية.

ولكن لكي يسبق ذلك تمام الفائدة، ولحاجة الدراسة، تناولنا مفهوم المصطلح والتأصيل التاريخي والمعرفي له عند النقاد العرب والغربيين، فضلا عن تسليط الضوء على إشكاليات هذا المصطلح وتعدد مفهوماته ودلالاته في الدراسات النقدية الحديثة.

المصطلح والمنهج:

يعد التفاعل النصي أو التناص (Intertextuality) من المصطلحات الوافدة عن الغرب التي عرفت في أدبنا العربي الحديث، ويقصد به تولد نص واحد من نصوص متعددة[1]، وقد أشار تإليه الناقدة البلغارية (جوليل كرسيفيا) عام ١٩٧٠ في كتابها (نص الرواية: مقاربة سيميائية لبنية خطابية متحولة) وتعني به ((ذلك التداخل النصي الذي ينتج داخل النص الواحد بالنسبة للذات العارفة، فالتناص هو المفهوم الوحيد الذي سيكون المؤشر على الطريقة التي يقرأ بها النص التاريخ ويتداخل معه))[2] فالنص الواحد تتدخل فيه عدة نصوص أُخر يقوم خلالها باستيعابها وتمثيلها وتحويرها ومناقضتها أحياناً.

وكان معنى التفاعل النصي أو التناص مقصوراً أول الأمر على تعدد الأصوات (Phonypoly) في الشعر في أبسط معنى معنى اشتقاقي له، وهو الازدواج في النظم بين الإيقاع المجرد وأصوات الحروف نفسها، وتطور بعد ذلك ليدل على تشابك المعاني الداخلية للكلمات مع

(١) ظهر هذا المصطلح الأدبي على يد البلغارية (جوليا كرستيفيا) عام ١٩٦٦ -١٩٦٧ في دراستها التي نشرت في مجلتي (تيل كيل) و (كيتك) في فرنسا، وأعيد نشرهما في كتابها (سيميوتك) و (نص الرواية) في مقدمتها لكتاب (دستيوفيسكي) الذي ألفه ميخائيل باختين، إذ يذهب بعض النقاد إلى أنه أول القائلين بالتفاعل النصوصي، وهناك من يترجم () intertextualityبالتناص أو التناصية أو النصوصية أوتداخل النصوص أو النص الغائب وسواها من المفهومات المترادفة. ينظر مفهوم التناص في الخطاب النقدي مقال ضمن كتاب في أصول الخطاب النقدي، مارك انجينيو، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.

(٢) سيميائية النص الأدبي، أنور المرتجى، المغرب، ١٩٨٧: ٣١٣.

معانيها أو نظائرها في نصوص أخرى خارج القصيدة، وتطور هذا الأمر حتى وصل إلى المعنى المصطلح عليه.

وهذا يدل على أن التفاعل النصي أو التناص عبارة عن عدة نصوص في نص واحد، من دون حدود لزمان أو مكان[٣]، وكما عبر (دريدا) ((نسيج لقيمات أي تداخلات، لعبة منفتحة ومنغلقة في آن واحد، مما يجعل الأمر من المستحيل لديه القيام بـ (جينالوجيا genealogle) بسيط لنص ما توضح مولده. فالنص لا يملك أباً واحداً و لا جذراً واحداً، بل هو نسق من الجذور وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى محو مفهوم النسق والجذر، إن الإنتماء التاريخي التاريخي لنص ما لا يكون أبدا بًخط مستقيم فالنص دائماً من هذا المنظور التفكيكي له عدة أعمار))[٤].

ولمغزى المصطلح جذور عربية، وإن أخذت مسميات ودلالات مختلفة، ومع ذلك فهي تصب في نصوص عربية قديمة ومتجددة، وقد تنوعت مفهومات تلك الحقول ما بين السرقات والمعارضات الشعرية، والمناقضات، ولاقتباسات والتضمينات، والاشارات والتلميحات والتوليدات، فضلا عن الرموز والاستيعاب والتمثيل، مع اختلاف الأطر لكل حقل من تلك الحقول.

وقد تنوعت روافد هذا المصطلح في الأدب المعاصر بتأثير مدرسة النقد الجديد، والأساس في جميع الروافد هو التفاعل النصي أو التناص انطلاقاً من النص الشعري أو النثري، باعتبار النص هو الجوهر المفاهيمي والدلالي الذي يؤخذ منه معطيات المصطلح الجديد.

وتكمن إشكالية التعريف بهذا المصطلح، بتعدد دلالاته ومفهوماته في الدراسات النقدية الحديثة، لأن أغلب الترجمات التي قدمت لهذا المصطلح، هي ترجمات لأشخاص مختلفين مكاناً واتجاهات ثقافية... الخ، لذا صيغ هذا المصطلح بصياغات عدة حول ترجمته

(٣) نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، عالم المعرفة (١٤٧) المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢: ٢٣٨.

(٤) تحليل الخطاب الشعري -استراتيجية التناص -، د محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٥: ١٢١.

ومفهومه تناقلها الباحثون على النحو الآتي:

- التناص أو التناصية.
- تداخل النصوص أو النصوص المتداخلة.
- النصوصية.
- النص الغائب، ويقابلها النص الراهن او النص الحاضر.
- النصوص المهاجرة، والمهاجر إليها.
- النصوص الحالة والمزاحة (الإحلال والإزاحة).

وغير ذلك من المصطلحات المترادفة، التي تتشابه في مدلولها -مع اختلافها -في تسمية المصطلح. ومع تعدد المصطلحات العربية والغربية، غير أنه يمكن الاستقرار على مصطلح (التفاعل النصي)؛ لأنه أكثر المصطلحات اتساعا واستيعابا لمفهوم العلاقة التفاعلية بين النصوص.

يعرفه محمد مفتاح بأنه ((تعالق «الدخول في علاقة» نصوص مع نص حديث بكيفيات مختلفة))[٥].

أما محمد بنيس فيقترح صياغة جديدة فيسميه النص الغائب إذ يرى ((ان النص الشعري هو بنية لغوية متميزة ليست منفصلة عن العلاقات الخارجية بالنصوص الأخرى))[٦]. أما عبد الله الغذامي فيقول فيه بأنه: ((يدخل فيشجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري فهو لا يأتي من فراغ، كما أنه لا يفضي الى فراغ، إنه انتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي وهو بذرة خصبة تؤل الى نصوص تنتج عنه))[٧]. ويستخدم صبري حافظ بدلا من الغياب والحضور الإحالة والإزاحة فيقول: ((النص عادة لا ينشأ من فراغ و لا يظهر من فراغ.. إنه يظهر في عالم مليء بالنصوص الأخرى، ومن ثمة فإنه يحاول الحلول محل هذه النصوص وإزاحتها من مكانها وخلال عملية الإحلال والإزاحة قد يقع النص في ظل نص أو نصوص أخرى))[٨].

(٥) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، محمد بنيس، دار العودة بيروت، ١٩٧٩: ٢٥١.

(٦) ثقافة الأمثلة -مقالات في النظرية والنقد- عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، ط ٢، ١٩٩٣: ١١١.

(٧) التناص وإشارات العمل الأدبي، د صبري حافظ، مجلة البلاغة المقارنة، العدد الرابع، ١٩٩٤: ١٣.

(٨) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب الوساطة لعبد القاهر الجرجاني، و كتاب

ومعنى هذا ان الصوص كلها- القديمة والحديثة -ترتبط بوشائج قربى، إذ لا يمكن إفلات النص الحالي من اتصاله بالنصوص السابقة.

وقد تنبه نقادنا القدامى إلى ضرورة اتصال الأديب بما سبقه، ولهم في هذا المجال جهود مميزة، غير أن أغلبها وقع تحت ظلال مسمى (السرقات الأدبية) وسواها -محمودة أو مذمومة -، وإن لم يذكر مفهوم التفاعل النصي أو التناص صراحة في المؤلفات التراثية العربية، ولكن هناك بعض الاشارات المتفقة معه والدالة عليه في بعض تلك المؤلفات من مثل: كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، وكتاب خزانة الأدب لابن حجة الحموي) وسواها من المؤلفات التي تنهض في شرحها وتفسيرها ونقدها من النص[٩].

ويشكل القرآن الكريم مادة غنية للأدباء والكتاب في مختلف الاتجاهات والموضوعات؛ لأنه يمثل مرجعاً فكرياً لتداخله مع النصوص الأدبية في علاقات تناصية بوصفه محور العلوم والمعارف.

إن توظيف النصوص الدينية -ولا سيما القرآنية -في الأدب يعد من أنجع الوسائل، وذلك لخاصية ذهنية في هذه النصوص تلتقي وطبيعة الأدب نفسه، وهي إنها مما يسعى الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره، فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو أدبياً[١٠].

وظاهرة التفاعل النصي مع القرآن ((تنفرد بها الثقافة العربية وتؤثر في حركية عملية تشابك العلاقات التناصية فيها، فلا تعرف ثقافة أخرى مثل هذا النص الأب، النص المثال، النص المسيطر، النص المطلق، النص المقدس..))[١١] فضلاً عن كونه النص المتفرد في إعجازه البياني.

الصناعتين لأبي هلال العسكري، وكتاب عيار الشعر لابن طباطبا العلوي.

(٩) ينظر إنتاج الدلالة -قراءة في الشعر والقصة والمسرح -د صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣: ٤١.

(١٠) التناص وإشارات العمل الأدبي: ٢٧.

(١١) الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٠: ٨١.

لقد أ صبح استرفاد النص القرآني من الوسائل التي يلجأ إليها الأديب دائماً، وقد نبه أئمة البيان وعلماء البلاغة إلى أهمية حفظ القرآن الكريم والمداومة على استخدام ألفاظه وعباراته، وممارسة حلها أو نثرها فيما يكتبون لتكتسب أساليبهم رونقاً وتعلوها طلاوة[١٢].

وإيمانا منا بالوشائج المتينة التي تربط السيدة الزهراء بالقرآن الكريم وبناءً على ما توافر من علاقات تفاعلية مع النص القرآني في خطبتها الشريفة التي شكلت ملمحاً بارزاً يمثل أهم السمات الفنية والموضوعية على حد سواء، كانت هذه الدراسة التي تسعى إلى قراءة اتجاهات التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء، التي تمثلت على وفق المحاور الآتية:

أولاً: التفاعل النصي التركيبي

يظهر هذا المحور عبر التراكيب القرآنية ودورها في إنتاج الدلالة الجديدة وتوجيهاتها، وتفاعلها مع الحدث داخل سياق الخطبة الشريفة فيعطي لها قيمة دلالية، ويمثله ما تعدى اللفظة الواحدة، وشمل آية كاملة أو جزءا منها، وتؤدي وظيفة مماثلة، ولكن من دون زيادة أو نقصان، أو ما اشتمل على آية أو جزء منها مع التباعد بين الألفاظ القرآنية ونص الخطبة الشريفة.

١. التفاعل النصي الكلي.

وهو ما يأتي من دون زيادة أو نقصان، وفيه استخدمت السيدة الزهراء النص القرآني للتعبير عن مجموعة من المبادىء الإسلامية من مثل: الأمر بامعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، والوفاء وسواها، إذ تختتم ذلك بقولها: ((فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به))[١٣] عبر الإتكاء على النص القرآني في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٠٢].

فالنص القرآني يتحدث عن تقوى الله عز وجل وارتباط ذالك كله بطبيعة الإسلام والإنسان المسلم، ونص الخطبة الشريفة يتحدث عن طاعة الله ومن

(١٢) المصدر نفسه: ٨٥.

(١٣) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٤.

ثم أل بيت النبوة عليهم السلام، غير أن السيدة الزهراء عليها السلام عملت على تداخل النص القرآني مع الخطبة الشريفة، إذ يمكن أن نلحظ الإرتباط العضوي فيما ذكرته عليها السلام من أن طاعة آل بيت النبوة عليهم السلام هي نظام للأمة وأن الإمامة هي أمان من الفرقة والضعف وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد مبادىء الدين، وهاهي عليها السلام تمارس هذه المهمة وتطالب المسلمين بطاعة آل بيت النبوة عليهم السلام[١٤] لتنطلق فيما بعد إلى الغايات الكبرى التي كانت السيدة الزهراء عليها السلام تروم تحقيقها في خطبتها الشريفة.

وفي موضع آخر من الخطبة الشريفة توجه السيدة الزهراء عليها السلام كلامها إلى عامة الناس بقولها: ((ايها الناس اعلموا اني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله، أقول عودا وبدءا، و لا أقول ما أقول غلطا، و لا أفعل ما أفعل شططا، لقد جاءكم رسول عزيز عليه ما عنّتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم))[١٥].

لقد شملت الألفاظ القرآنية مساحة واسعة من الخطبة الشريفة تنسجم ومضمون النصوص القرآنية عبر اسلوب التفاعل النصي لتتحرك هذه الألفاظ بصورة متوازية مع الدلالة الجديدة المراد طرحها، لتسجل المواقف التي أرادت السيدة الزهراء عليها السلام والوقوف عندها وتسليط الضوء عليها، وبالتالي نجد أن هذا التفاعل النصي قد جاء متوافقا مع الحالة الشعورية لها في تلك اللحظة، فأتى التفاعل النصي مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨]. فنص الخطبة الشريفة يعمد إلى الصور التمثيلية التي تمثل نموا عضويا لما طرحته السيدة الزهراء سابقا، وبذلك تدخل عليها السلام عبر هذا المدخل إلى الموضوع الرئيس المستهدف لتخاطب الجماعة، وقد عمدت عليها السلام إلى تقرير القول في (لا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما افعل شططا) إذ يمثل هذا التقرير أداة فنية لتمرير دلالة خاصة تستهدف من ورائها إرهاصا لما هو

(١٤) أدب فاطمة، د محمود البستاني، د ت: ٤.
(١٥) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٤.

شديد الأهمية –ما هو قادم –[16].

لقد وظفت السيدة الزهراء عليها السلام النص القرآني توظيفا مناسبا، إذ كانت تمهد له بقولها (لا أقول ما أقول غلطا...) وفيه تأكيد على عد القول من جانب وعدم الفعل من جانب آخر، لما هو غلط قولا أو ما هو شطط فعلا، وعليه فقد قدم هذا التمهيد نفسه بوصفه دلالة رمزية لما هو آت. فاقتطعت السيدة الزهراء عليها السلام جزء من الآية الكريمة ليتم معها التوظيف في سياق الخطبة الشريفة، وفي كلا النصين تظهر سمات النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام.

٢. التفاعل النصي الجزئي.

وهو ما يأتي نصاً مع زيادة أو حذف أو تقديم وتأخير في الآيات القرآنية المباركة.

لقد قدمت السيدة الزهراء عليها السلام حقائق تتصل بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في علاقته مع القوم من مثل إنقاذه صلى الله عليه وآله المجتمع المنحرف بقولها: ((فبلغ الرسالة صادعا بالنذارة، مائلا عن مدرجة المشركين، ضاربا ثبجهم، آخذا بأكظامهم، داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة))[17]. لقد اختارت السيدة الزهراء عليها السلام ان تذكّر القوم بدور الرسول الكريم في هداية المجتمع من الضلالة فاختارت هذه المرة صور جديدة عبر استلهام موضوعة (الجهاد) بعد أن كان الموقف السابق يتحدث عن الانقاذ من خلال التلميح العام لمعطيات الرسالة المحمدية ولذلك تقول عنه صلى الله عليه وآله ومجاهدته المشركين بانه بلغ رسالة الله[18] وقد جاء التفاعل النصي مع آي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] فالآية القرآنية تخبر عن أساليب الدعوة التي اتبعها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والسيدة الزهراء عليها السلام استخدمت الأسلوب المباشر الأمر الذي يثير المتلقي. والتفاعل النصي جاء عبر استبدال فعل الأمر (أدع) بالفعل الماضي (داعيا) واستبدال الضمير (الكاف) بالضمير (الهاء)، فالآية بتصدرها فعل الأمر تشير إلى حدث لم يقع بعد أما الفعل الماض الذي استخدمته السيدة

(١٦) ينظر أدب فاطمة: ٤٠ –٤١.

(١٧) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٤.

(١٨) ينظر أدب فاطمة، ١٤.

الزهراء عليها السلام فانه يفيد وقوع الفعل وتحقق وقوعه، ليتناسب مع السياق العام للخطبة الشريفة، وقد أضفى التفاعل النصي مع القرآن الكريم على هذا المقطع لونا من البريق الشعوري للمقابلة عن وصف أسلوب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في تبليغ الرسالة السماوية السمحاء.

ثم تقيم السيدة الزهراء عليها السلام علاقات جديدة بين الدلالات عبر إيجاد روابط إضافية بين الجهاد في سبيل الله والانحراف الذي كان القوم عليه، فتقول : ((وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك ونعالى بمحمد صلى الله عليه وآله))[19] لقد ظهرت في هذا المقطع من الخطبة الشريفة بعض الألفاظ التي تدعم صور انحراف هؤلاء القوم وهي بمجموعها تمثل سمات المجتمع الذي يغرق في الرذيلة والخنوع والذل من مثل: (تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، تخافون، أن يتخطفكم الناس من حولكم)، وقد تفاعل نص الخطبة الشريفة مع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

لقد وظفت السيدة الزهراء عليها السلام النص القرآني لتظهر لنا ثنائية المواقف بين الإيمان والكفر عبر التركيز على مفاصل مهمة تتمحور حولها الدلالة الجدية التي تسعى إلى تقديمها وهي بالتالي تشغل مساحة مهمة من الخطبة الشريفة تقوم على معرفة الآخر بمكوناته المختلفة وموقف الذات المبدعة منه الذي تحاول فيه كشف حقيقة هذا الآخر وتعرية مواقفة السلبية ولا سيما الموقف من قضية ارث السيدة الزهراء عليها السلام الذي اخذ أبعادا أخرى تنسحب على الموقف من الإيمان والكفر الذي ينسحب بدوره من أصحاب الشأن بشكل مباشر إلى عامة المسلمين الذين تمثل مواقفهم السلبية تجاه هذه القضية إنحيازا غير معلن مع الباطل على حساب الحق، الأمر الذي يؤشر بوضوح ازدواجية المواقف ويوضح بما لايقبل الشك ماآلت إليه أمور المسلمين

(١٩) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٥.

بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ.

ثانيا: التفاعل النصي مع المفردات القرآنية

ظاهرة التفاعل النصي مع المفردات القرآنية، تمثل جانبا مهما وشغلت مساحة كبيرة من الخطبة الشريفة، لما تحمله من عمق دلالي وقدسية معينة في نفس المتلقي، فضلا عن قدرتها على تزويد النص الجديد بعمق دلالي يسهم في إثراء السياق العام والأخذ بالتراكيب نحو نمو معنوي وعضوي أكثر فعالية وأنجع تأثيرا. وان هذه المفردات جاءت بصور مختلفة مابين صيغ فعلية واسمية، واغلبها قد طبعت بالطابع القرآني الخالص الذي يمكن تلمسه بوضوح في متن الخطبة الشريفة.

تقول السيدة الزهراء عليها السلام: ((بقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة أسراره، متجلية ظواهره))[٢٠]. ففي هذا المقطع من الخطبة الشريفة نلمح بعض الألفاظ القرآنية التي ظهرت في النص الجديد-نص الخطبة الشريفة -والتي أتت متفاعلة مع قوله تعالى: ((﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٣]. والملاحظ هنا أن كلمة (بصائر) قد عضدت المعنى الجديد في متن الخطبة الشريفة، إذ تبدأ السيدة الزهراء عليها السلام بمخاطبة القوم -جماعة من المهاجرين والأنصار-عبر الاستعانة بمجموعة من الصور تمثل مقدمات فنية للموضوع المستهدف، عبر التفاعل النصي مع القرآن الكريم، من خلال تأكيده عليها السلام على أن هؤلاء القوم هم بقية مستخلفة من قبل كتاب اللة تعالى، الأمر الذي يمثل إلقاء الحجة عليهم علّهم يحاسبون أنفسهم حيال المسؤولية الملقاة على عاتقهم بوصفهم مسلمين، ولا سيما انها عليها السلام ألمحت إلى هذا الموضوع بصورة مباشرة، لتؤكد بذلك التطابق بين أدلة القرآن الكريم وأدلة الحق للإمام علي عليه السلام، إذ قدمت صورا تعتمد علة ماهو ناطق وصادق وساطع ولامع وبيّن ومنكشف ومتجلّ، فالنطق والصدق والانكشاف والتجلي والتبين والسطوع... تمثل مفردات

(٢٠) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٤.

منتخبة تقدم بكل وضوح دلالة جوهرية هي: وضوح البرهان وضوح الموقف ومع هذين الموقفين فإن تجاهل استمرارية الإمامة لا يمكن ان يقبل أبدا. ومثل هذا التناول يضع بين أيدينا أهمية التفاعل النصي مع القرآن الكريم على مستوى المفردات، فالنص القرآني يقترن بسمات تتناول جوانب مختلفة من مثل: العقائدية والأخلاقية والاجتماعية ولاقتصادية والعلمية... إلا أن الخطبة الشريفة اكتفت في هذا المقطع بعرض سمة واحدة هي: وضوح وتجلي وانكشاف وسطوع ونطق و صدق هذا القرآن، لتربط بين وضوح الحقائق المتقدمة ووضوح الموقف الذي ينبغي ألا يتجاهله القوم[٢١]. ففي هذا المقطع استخدمت السيدة الزهراءعليها السلام لفظة (بصائر) التي تنتمي إلى القرآن الكريم والتي تدور حول سمات القرآن الكريم التي نقلت عن طريق النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وكما جاء في القرآن الكريم في [سورة الأعراف: ٢٠٣] و[سورة الإسراء: ١٠٢] و [سورة القصص: ٤٣] و [سورة الجاثية: ٢٠].

(٢١) ينظر أدب فاطمة: ٣٦ -٣٧.

فالعلاقة بين الألفاظ القرآنية والخطبة الشريفة قائمة على أساس المساعدة في إظهار جميع جوانب الحدث الذي تريد السيدة الزهراءعليها السلام أن تقدمه وتجعله محور اهتمام المتلقي، وكانها وثيقة لهذا الحدث عبر الاستعانة بأُطر الألفاظ القرآنية في سياق الخطبة الشريفة.

لقد اعتمدت السيدة الزهراءعليها السلام استعارة التراكيب القرآنية عبر الألفاظ فجاءت متماثلة مع الألفاظ القرآنية من حيث البنية الصرفية والنحوية مع اختلاف الدلالة، لإنتاج دلالة مختلفة داخل متن الخطبة الشريفة.

وعليه يمكن القول: إن أسلوب السيدة الزهراءعليها السلام يشي بغزارة الاستدعاءات للألفاظ القرآنية وتكثيفها داخل نص الخطبة الشريفة متمثلا في اللفظ والمعنى، مع التنبيه إلى تفاوت ذلك من مقطع إلى آخر كل بحسب أهمية الحدث الجزئي المراد التعبير عنه.

ثالثا: التفاعل النصي مع الشخصيات القرآنية

تمثل الشخصيات القرآنية بما تحمله من

أبعاد مهمة على المستوى الشخصي والعام روافد ثرة لمختلف النصوص الأخرى، نظرا لثرائها الدلالي وعمق تصويرها وبراعة تقديمها لتمثل الأنموذج الرباني الذي يسعى الجميع الى التأسي به وعلى مختلف الأصعدة.

وعليه فقد استطاعت السيدة الزهراءﷺ التنبيه إلى أهمية الدور الذي تلعبه هذه الشخصيات في تقديم الدلالة المطلوبة وبالتالي توظيفها في تقديم الحدث الذي تريده في الخطبة الشريفة، مع التلاعب بالألفاظ، ومن الشخصيات التي استدعتهاﷺ شخصيتي: (داوود وسليمانﷺ) وتوظيفهما في المقطع الأخير من الخطبة الشريفة، وهو قسم له خصوصيته، ولا سيما أنه القسم الذي تحاجج به السيدة الزهراءﷺ خصومها بشكل مباشر عبر الاتكاء على الأدلة القرآنية.

والملاحظ ان الاعتماد على التفاعل مع النص القرآني في الخطبة الشريفة يظل من الوضوح بنحو لا يمكن مقارنته مع نصوص أخرى المماثلة، وهو الأمر الذي يستدعيه السياق الخاص وطبيعة الموضوع والظرف الذي طرح فيه والمقصود هنا تحديدا الاحتجاج به على قضية إرثهاﷺ، ولا سيما أنهاﷺ تأخذ على القوم عدم عملهم بمضمون القرآن الكريم، وعند إذ ما أحراها بأن تفيد منه هي في هذا الموقف، وهذا ماتوافرت عليه بشكل ناجع، ولعل هذا الأمر يفسر ((مدى التجانس بين مضمون الخطبة وأسلوبها الفني: في التوكؤ على النص القرآني))[٢٢] ببعديه الاحتجاجي والتفاعلي مع النص القرآني.

فقد جاء في الخطبة الشريفة: ((أفي كتاب الله ان ترث أباك و لا أرث أبي، لقد جئت شيئا فريا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول وورث سليمان داوود))[٢٣]. لقد عمدت السيدة الزهراءﷺ إلى أسلوب السؤال المباشر، ثم بعد ذلك التعقيب والتهديد في نهاية المطاف اعتمادا على النص القرآني في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[سورة النمل: ١٦].

وفي ذات السياق تقول السيدة

(٢٢) ينظر أدب فاطمة: ٦٨ -٦٩.
(٢٣) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٦.

الزهراء عليها السلام: ((وقال فيما اقتص خبر يحيى من زكريا إذ يقول رب هب لي من لدنك وليا يرثني... وقال وأولو الأرحام.. وقال يوصيكم وقال إن ترك خيرا الوصية..))[٢٤]. لقد اقترنت شخصية يحيى عليه السلام بشخصية زكريا عليه السلام، وتجاورت الشخصيتان للدلالة ولتأكيد حق السدة الزهراء عليها السلام في إرثها الذي أقره القرآن الكريم قبل كل شيء.

والسيدة الزهراء عليها السلام تخاطب القوم الذين أنكروا حقها وعليه كان استدعاؤها عليها السلام ليحيى وزكريا عليهما السلام للدلالة على الحق، حق إرث الأنبياء الذي أقر في القرآن الكريم ابتداءً.

لقد اعتمدت السيدة الزهراء عليها السلام في هذا التوظيف أسلوب المفارقة، إذ جعلت إرث سليمان داوود يقابلها لا إرث لها، وخبر يحيى من زكريا يقابله لا أرث لها وكما في المخطط الآتي:

الدلالة القرآنية

الدلالة في الخطبة الشريفة

إثبات/ إقرار نفي/ تنصل

وورث سليمان دوود

لا أرث للسيدة الزهراء عليها السلام

خبر يحيى من زكريا

لقد تحققت المفارقة بين الصورة القرآنية والصورة الواردة في الخطبة الشريفة عبر بوابتي الإثبات والنفي، وعليه تفاعل المعنى المطلوب مع الشخصيات القرآنية لإنتاج الدلالة الجديدة المتوخاة، بشكل يتيح للمتلقي الوقوف على الحقائق عبر الاستعانة بالإقرار القرآني الصريح لحق السيدة الزهراء عليها السلام.

إن أهمية هذا التفاعل النصي تكمن في الكيفية التي استخدم فيه، فمثلا عندما تخاطب السيدة الزهراء عليها السلام (.. ترث أباك و لا أرث أبي؟. لقد جئت شيئا فريا) نجد أن أسلوب السؤال من جانب، والتعقيب عليه عبر التفاعل النصي مع القرآن الكريم من جانب آخر يجسد أهم ملامح النص الجديد الذي يحمل مسؤولية تقديم الدلالات المغايرة بغية الحفاظ على شخصيته واستقلاليته مع الاعتراف بفضل النص القرآني في الدلالة الجديدة.

(٢٤) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٦.

رابعا: التفاعل النصي مع الأفكار القرآنية

إن امتصاص أفكار النصوص الأخرى يمثل مرحلة أعلى في قراءة النص الغائب، وهذا القانون ينطلق أساسا من الاعتراف بأهمية هذا النص وقداسته، فيتفاعل و إياه تفاعلا حركيا تحوليا لا ينفي الأصل، بل يسهم في استمراره جوهرا قابلا للإمتصاص، ومعنى هذا أن التفاعل النصي لا يجمّد النص الغائب و لا يبعده، بل هو يعيد صياغته فحسب على وفق اشتراطات المرحلة التي ولد فيها النص الجديد، وبذلك، ((يستمر النص غائبا غير ممحو ويحيا بدل أن يموت))[٢٥].

ومثل هذا الأمر حصل في خطبة السيدة الزهراءﷺ، في قولها: ((والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منساة في العمر، ومنماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء))[٢٦] إذ تجلى التفاعل النصي مع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩]. غير أن السؤال المهم الذي يطرح هنا ماذا حل بالنص الأصلي؟. الجواب ببساطة أنه ثمة تلخيص لقوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، فضلا عن استرفاد المفاصل المهمة فيه وتوظيفها لبناء صياغة جديدة تخدم المعنى المطروح -الجديد-.

لقد عرضت السيدة الزهراءﷺ لمجموعة من المباديء الإسلامية التي تحقق التوازن الاجتماعي للأمة، من مثل: (الأمر بالمعروف، والصبر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام) إذ تختم السيدة الزهراءﷺ هذا المقطع من الخطبة بالتأكيد على أهمية التقوى التي بدورها مرتبطة عضويا بقضية تمثل مفصلا مهما في الخطبة الشريفة ألا وهي قضية طاعة آل بيت النبوةﷺ التي قدمتها الخطبة الشريفة بوصفها أمان للأمة من الفرقة والتشرذم وبالتالي الضعف والانهيار.

يتبين من خلال هذا المقطع من الخطبة الشريفة أن هناك بصمة واضحة للأفكار القرآنية السامية التي ارتفعت بالمجتمع إلى

(٢٥) ينظر ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: ٢٥٣.
(٢٦) الاحتجاج، الطبرسي: ١/ ١١٤.

مصاف متقدمة إذا ما قيست بالمجتمعات الأخرى المعاصرة، فضلا عن الإضافات البنائية، الأمر الذي أعطى نص الخطبة الشريفة عمقا دلاليا وبعدا معنويا إنماز بكونه يستمد وجوده من الأصل القرآني.

وفي موضع آخر من الخطبة الشريفة تقول السيدة الزهراءعليها السلام في معرض حديثها عن شخصية رسول اللهصلى الله عليه وآله وانتخابه رسولا من الله تعالى إلى البشرية جمعاء: ((وأشهد أن أبي محمدصلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اختاره وانتخبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه))[٢٧] لقد استخدمت السيدة الزهراءعليها السلام مفردات دقيقة تدل على معنى الانتخاب غير أنها تفترق إحداها عن الأخرى مما يكشف عن قدراتهاعليها السلام اللغوية، ان استخدام هذه الألفاظ المترادفة (اختاره، انتجبه، اجتباه، اصطفاه) في موضع واحد مع أن لكل واحدة منها دلالته التي تميزها عن الأخرى له مبرراته على مستوى النظم والأسلوب والدلالة.

فهذه الصفات المتنوعة في شخصية الرسول الكريمصلى الله عليه وآله وإرساله إلى البشرية مشفوعا بها يعني: أن الله تعالى قد رصد هذه فيه الصفات الإيجابية في شتى صورها ومن ثم ابتعثه إلى البشرية، الأمر الذي يشير بوضوح إلى علاقة هذا الانتخاب والرصد بما يرسم من المواقف والأحداث، فضلا عن أن الرسالة السماوية تتطلب الانتخاب لشخص النبي محمدصلى الله عليه وآله بوصفة أسوة حسنة الآخرين[٢٨].

وعليه يبدو واضحا مدى التلاقح الفكري بين نص الخطبة الشريفة و النص القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة آل عمران: ٣٣]، وقوله تعالى﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[سورة النمل: ٥٩] لقد حول التفاعل النصي مع القرآن الكريم في النص القرآني الأول الحديث من الإخبار عن الأنبياء (نوح، وآدم، وآل ابراهيم، وآل عمران) إلى الحديث عن شخص رسول الله محمدصلى الله عليه وآله ن الأمر الذي أحدث تحولا على صعيد الدلالة التي تحول هذا

(٢٧) الاحتجاج الطبرسي: ١/ ١١٣.

(٢٨) ينظر أدب فاطمة: ٣٠-٣١.

الاصطفاء إلى الرسول الكريمﷺ بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين. اما في النص القرآني الثاني فقد حولت الخطة الشريفة الحديث من العام إلى الخاص وهو طبعا مايشير إلى شخصية الرسول الكريمﷺ.

وهذا اللون من التفاعل النصي يخلق شعرية خاصة وواضحة على النصوص، لما له من قابلية على تطوير وقلب في الدلالة، كونه يقود إلى تصور جديد بأعلى قيمه، الأمر الذي يسميه النقاد بـ (شعرية التناص للنص الجديد)[٢٩].

الخاتمـــة

لقد مثل القرآن الكريم عند السيدة الزهراءعليها السلام، مرجعا فكريا هاما، لتداخله مع نصوص خطبتها الشريفة في علاقات تفاعلية عديدة، إذ استقت منه ما يقوي خطبتها ويدعمها.

فالدخول في علاقات تفاعلية مع النصوص القرآنية سمة تطبعت بها مختلف مقاطع وأقسام الخطبة بنحو لافت للنظر، ذلك انها لاتمثل مجرد إفادة أسلوبية ودلالية من النصوص القرآنية، بل هي تشير إلى أن السيدة الزهراء قد أفادت من النصوص القرآنية في دلالاته المختلفة، الأمر الذي يتناسب مع ما جاء في متن الخطبة الشريفة.

لقد اكسب القرآن الكريم هذه الخطبة الشريفة، عمقا جماليا وفنيا، عبر التفاعل النصوصي، بالاسترفاد من الخطبة الشريفة، ممثلا في الجزئيات والوحدات البنائية المتوالدة، إذ تلاحقت الأفكار داخل نسيج الخطبة الشريفة، اعتمادا على التلاقح المثمر مع النصوص القرآنية، الأمر الذي أسهم بقوة في بلورة آليات إنتاج الدلالات الجديدة، انطلاقا من اعتماد السيدة السيدة الزهراءعليها السلام لغة وأسلوب القرآن الكريم ذاته، وبذلك تعتمد في تفاعلها النصوصي على المادة والأسلوب كليهما.

وعليه نخلص من دراسة التفاعل النصوصي مع القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراءعليها السلام، أنه سار في تفاعلاته النصوصية على عدة محاور:

(٢٩) التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٤: ٦٤.

١. استحضار الآية أو جزء منها بلفظها ومدلولها.
٢. استحضار الآية أو جزء منها، اما بزيادة أو نقصان أو الفصل.
٣. استخدام الألفاظ المفردة المتقاربة والمتباعدة في النص القرآني.
٤. استحضار بعض الشخصيات القرآنية وقصصها، ليقدم بها الحدث الجديد، مستعينا بوجه الشبه بين الظروف والمواقف، وأحيانا ذكر حدث القصة.
٥. لم يأت التفاعل النصوصي منفصلا عن بنية الخطبة الشريفة، بل جاء متوجا لها عبر التداخل مع التراكيب والمفردات أو استدعاء الشخصيات أو الأفكار القرآنية.

أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه، وأن يتقبله بمنه وكرمه، وأن يجعله لبنه أخرى في صرح تراث السيدة الزهراء عليها السلام

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي الأكرم محمد بن عبد الله وعلى آل بيته الطاهرين وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أدب فاطمة الزهراء، د محمود البستاني، مؤسسة تعليم اللغات، قم، د ت.
- الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٠.
- أصول الخطاب النقدي ن مارك انجينيو، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.
- انتاج الدلالة -قراءة في الشعر والقصة والمسرح -، د صلاح فضل، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، علم المعرفة (١٤٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٩٢.
- تحليل الخطاب الشعري -استراتيجية التناص -، د محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٥.
- التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٤.
- ثقافة الأمثلة -مقالات في النقد

والنظرية، عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، ط ٢، ١٩٩٣.

❖ الاحتجاج، الشيخ أبو منصور الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٨.

❖ سيميائية النص الأدبي، د أنور المرتجى، المغرب، ١٩٧٨.

❖ ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقاربة بنيوية تكوينية -، محمد بنيس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

الدوريات

❖ التناص وإشارات العمل الأدبي، د.صبري حافظ، مجلة البلاغة المقارنة، ع٤، لسنة ١٩٩٤.